محاضرات مقياس الاستشراق

الأستاذة نعيمة رحماني

السنة 2 انثروبولوجيا

المحاضرة06

الاستشراق وعلاقته بالانثروبولوجيا

لقد قامت هذه **تشارلز داروين** **Darwin.C** بالتّرويج المطلق للتحيّز العنصري، والمناداة للتّمركز حول السّلالة والتعصّب العنصري، وهي أفكار تدعّم الاستعمار وتضفي عليه شرعيّة الممارسة للإبقاء على النوّع الأصلح. ونتيجة لتعميم وتطبيق تلك النظرية وغيرها ظهرت كتابات استشراقيّة تحمل في طيّاتها نسقا دينيّا دفينا، ونسقا سلطويّا سياسيّا واستعماريّا ظاهرا، فقد كان معظم كتّابها من الحكّام والإداريّين الّذين يشتغلون داخل المستعمرات. ثمّ ظهرت المادّة البحثيّة الحقليّة الّتي ساعدت على تطوّر النظريّات، وصنعت تلاحما بين الحقل والنظرية، من أجل دراسة الشّعوب المستعمرة ميدانيا ولغايات استعماريّة طبعا؛ حيث عزّز ذلك **موريس فيولويت**، **Maurice Violette**(1870م-1960م) الحاكم الليبرالي العام للجزائر حينما ذكر: " إنّ سياستنا في الجزائر، تظلّ محكومة بالانهيار إذا زعمتَ مبدئيّا أنّ المواطن الأصلي لا يرقى في وجوده إلى الأوروبيّ مهما كان مبلغه من التحضّر والثقافة...ذلك الكبرياء العرقي...المترسّخ.. الّذي يصنّف البشر إلى رعايا وأسياد...وهذا يمثّل نظريّة الأعراق الّتي اختُلقت وأُرسيت قواعدها في سبيل الاعلاء من شأن الأعراق المنتخبة، تلك النظريات الّتي طالما أثارت حنقي (غيظي)."[1]

وفي السّياق نفسه أقيم عام 1900م مؤتمر موسوم بـ "علم الاجتماع الاستعماري" اكتنف موضوعه الجدليّة بين النّسق المعرفيّ النظريّ وبين النّسق السّياسي الاستعماري؛ "فالسياسة تمدّ المعرفة بموضوعها والاتجاه الّذي ينبغي أن تسير فيه، والمعرفة تمدّ السّياسة بالمعطيات الّتي تساعدها على تنفيذ مشروعها وعلى تبرير مشروعيّتها كما تمدّها بصيغة للتعبير عن

[1] ديريك هوبود، مرجع سابق، ص 118-119.

أهدافها."[2] وهكذا استنتج المستشرقون أنّ حكم السكّان الأصليّين لا يستقيم إلّا بمعرفة عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومقوّماتهم ومصادر قوّتهم، من أجل إحكام قبضتهم عليهم، وتبيّن لهم أنّ العرق هو الّذي يحدّد الذّكاء والسمات الثقافيّة والخصائص الأخلاقية، وأنّ عرقهم هو الأجلّ والأفضل، وهذه الأفضلية تدعّم علاقات الاستغلال والتبادل اللامتكافئ مع الشّعوب الخاضعة الّتي تختلف فيزيقيّا عن المستعمر.[3]

ويحضرنا في هذا المقام قول الطبيب يوجين بوديشيه "بوجوب اجتثاث العرب في صورة مناضرة لتلك الّتي انتهجها الأنجلو أمريكيين في القضاء على هنود أمريكا."[4] كما تمّ نعت المجتمعات المستعمرة بالمجتمعات القدريّة الجبريّة،[5] الّتي تتميّز بالنّظرة القدريّة لأمور الحياة، حيث يَعتقد السكّان أنّهم عاجزون عن التّأثير في مجرى الأحداث، بسبب نزعة المحافظة عندهم.

هي إذا أفكار آمن بها المستشرقون أنفسهم الّذين يخدمون النّسق السّلطوي الاستعماري، والّذين يحيكون مؤامرات لإفشال تلك المجتمعات واحباطها وجعلها خاضعة لتلك القدرية. والواقع ان تلك السمة القدريّة لا تمثّل قيمة مطلقة لصيقة بتلك بالمجتمعات، بل هي واحدة من بين العديد من القيم الّتي يؤمنون بها ويطبّقونها مثل؛ رفض الواقع المرير الّذي يعيشونه، وانتهاج منطق التغيير الّذي برز على شكلّ حركات تحررية نشدت الحرية أثّر حراك ثوري واسع النطاق؛ ذلك الحراك الّذي غيّر مجرى الأحداث التاريخيّة، ولا يزال يغيّر إلى يومنا هذا، وخير دليل على ذلك حراك الجزائر الّذي غيّر مجرى الأحداث تماما، فهل يمكننا أن ننعت الجزائر وغيرها من الدّول المسلمة بالمجتمعات القدريّة في ظل التّغييرات الّتي اعتمدتها؟

لقد أغفلت نظريّة القدريّة الجبرية درجة التنوّع والمرونة والإبداع وعدم الاتّفاق الموجودة في كلّ المجتمعات الإنسانية، وهذا الإغفال يدحض تلك النظريّة المبنيّة على حتميّة الجمود والثّبات، كما تدحضها أيضا نظريّة النسبيّة الثقافيّة الّتي تأسست على منطق أنه "لكلّ ثقافة أو مجتمع

---

[2] حسين فهيم، مرجع سابق، ص 102.

[3] شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص218.

[4] ديريك هوبود، مرجع سابق، ص117.

[5] المرجع نفسه، ص427.

منطقه الخاصّ وتماسكه الدّاخلي اللّذان يمكن في ضوئهما تفسير عاداته وتقاليده،"[6] فهي تأخذ بتنوّع الشّعوب واحترامها ودراستها وتفهّمها ودراسة أوجه التّشابه والاختلاف من أجل تفسير سلوكات الأفراد لا من أجل استعمارها. فلكلّ مجتمع ثقافة تتناسب مع خبرته الإنسانيّة ومع بيئته ومع ظروفه التاريخيّة، ولا يحقّ إصدار الأحكام على الآخرين من منطلق فكرة التعصّب السّلالي والحكم عليهم بالمجتمعات البدائيّة والمتوحّشة.

ويقول في هذا الصّدد عالم الانثروبولوجيا البريطاني **إدوارد إيفانز بريتشارد Evans -Pritchard** (1902م–1973م) " إن كلّمة البدائيّ هي اختيار غير موفّق لوصف المجتمعات غير الأوروبيّة والواقعة تحت طائلة الاستعمار الغربي، لقد أصبحت اصطلاحا واسع الانتشار إلى حدّ لا يمكن تجنّبه.[7]حيث تفترض صفة البدائيّ وجود تماثل[8]وإجماع عامّ يميّز المجتمعات البدائية، ويحصرها في بوتقة التخلّف. فأين هي إذا الخصوصيّة الثقافيّة لكلّ مجتمع؟ تلك الخصوصيّة الّتي تُعرّفنا على السّمات المميّزة لكلّ ثقافة بغية استبعاد التعميمات الّتي وقعت فيها جلّ الدّراسات الإستشراقيّة.

(يتبع)

---

[6]شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص514.

[7] حسين فهيم، مرجع سابق، ص 133.

[8] شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص26.